«بيكي، افعلي هذا.» و«بيكي، افعلي ذاك.» ومع ذلك، لم يكن ذلك ليسترعي انتباه أحد، لأنه بدا أمرًا بعيدًا كل البعد عن عالمهم المليء بالثراء والراحة.

وفي ذلك اليوم أقسمت سارا أن تقيم علاقة صداقة مع بيكي. فعادة كانت سارا تهرع إلى مساعدة المحتاجين دون تفكير، ولم تكن بيكي لتُستثنى منهم.

ومع ذلك في المرات القلائل التي التقتا فيها مصادفة، بدت بيكي مرتبكة. وكانت سارا تدرك أن بيكي ستُعنف أيما تعنيف إذا ضُبطت متلبسة وهي تتحدث إلى التلميذات، لذا التزمت بالابتعاد عنها.

وبعد مضي أسابيع قلائل، حدث موقف سعيد؛ فعندما دخلت سارا غرفة الجلوس الخاصة بها، وجدت بيكي تغط في نوم عميق على الكرسي الهزاز الوثير المصنوع من القطيفة بجانب المدفأة.

وكانت بيكي قد جاءت إلى غرفة سارا كي ترتبها وتضيف المزيد من الفحم إلى مدفأة سارا. وكانت غرفة سارا مميزة عن بقية الغرف؛ فهي غرفة دافئة تعج بالألوان المبهجة، وتزخر بالصور والكتب والبطاطين الناعمة وأشياء غريبة من الهند. وكانت هناك أيضًا سجادة من جلد نمر كان والدها قد اصطاده. وكانت بيكي دائمًا ترجئ تنظيف غرفة سارا إلى النهاية باعتبارها مكافأة لنفسها لإتمامها أعمال النظافة.

لم تتجرأ بيكي من قبل قط على الجلوس على الكرسي الهزاز الخاص بسارا، لكنها قالت في نفسها في هذا اليوم: «سأجلس لأرتاح دقيقة واحدة ...»

لكن الدفء الذي تبعثه المدفأة طواها بسحره، فقالت لنفسها قبلما تغطُّ سريعًا في سبات عميق: «دقيقة واحدة أخرى فقط.»

همست سارا إلى إيميلي: «أوه! يا لها من مسكينة! إنها متعبة للغاية.» وأخذت سارا تفكر في أن المصادفة وحدها هي من جعلتها تحيا حياة كريمة وجعلت بيكي تحيا مثل تلك الحياة الشاقة؛ فما هما إلا فتاتان صغيرتان لا فرق بينهما.

لم تشأ سارا أن توقظ بيكي، لكنها خافت أن تمر بهما الآنسة منشن وتجدها هناك. وبينما كانت سارا تفكر، إذ بجمرة نار ترتطم بحاجز المدفأة محدثة صوتًا قويًّا، ففتحت بيكي عينيها اللتين وقعتا على سارا في الحال فقفزت لتوها من على مقعدها.

فقالت لها في ارتباك: «أنا آسفة يا آنسة!»

قالت سارا: «لا تأسفي. أنا سعيدة لأنكِ هنا.» ثم اقتربت سارا وأمسكت يد بيكي. ومع أن بيكي كانت أكبر، فقد بدت أنها بحاجة إلى الأمومة بقدر حاجة لوتي لها تمامًا.

استمرت بيكي في اعتذارها: «لم أقصد أن أفعل هذا يا آنسة.» اعتادت بيكي تلقي التوبيخ والتعنيف الشديدين حتى إنها لم تلحظ معاملة سارا الطيبة لها فواصلت: «لكن النيران كانت دافئة، والكرسي ناعم للغاية، وأنا كنت متعبة بشدة ...»

حاولت سارا أن تهدئ من روعها: «أعرف ذلك، وأنت تكدين في العمل.» أخيرًا اكتشفت بيكي أنها ليست في ورطة.

فقالت لاهثة: «أحقًّا لستِ غاضبة يا آنسة؟ ولن تبلغي الآنسة منشن؟»

أجابت سارا: «بالطبع لن أطلع أحدًا على الأمر.» وطرأت فكرة أخرى ببال سارا فسألتها: «هل انتهيتِ من إتمام عملكِ؟ ألا يمكنك أن تمضي معي وقتًا أطول؟»

حدقت بيكي في عينيها الواسعتين.

– «هل أبقى يا آنسة؟ أنا؟ هنا؟»

هرعت سارا نحو الباب كي تتحقق من أنه لا يوجد أحد حولهما.

قالت سارا: «الممر هادئ، ولا أحد يعلم أنكِ هنا. إذا كنتِ قد انتهيتِ من إتمام عملك، فهل يمكنك أن تأتي لتقضي معي بعض الوقت؟»

أومأت بيكي بتؤدة. بالتأكيد ظنت بيكي أنها لا تزال تحلم في كرسي سارا الهزاز.

ثم فتحت سارا أحد الأدراج، وأخرجت كعكة شوكولاتة مجمَّدة، ثم قطعت شريحة سميكة من أجل بيكي. ابتسمت سارا في سرور عندما كادت بيكي تلتهم القطعة كلها في قضمة واحدة.

قالت سارا: «بيكي، إذا جئت إلى غرفتي كل ليلة، يمكنني أن أقص على مسامعك جزءًا من قصة عروسة البحر في كل مرة، إلى أن تنتهي القصة.»

تهللت بيكي، وقالت: «سأفعل! وسأحب هذا بشدة حتى إنني لن أعبأ مرة أخرى بثقل صناديق الفحم، أو بكوني جائعة، أو بالمعاملة القاسية التي أتلقاها من الآنسة منشن. أظنني أستطيع أن أتحمل كل شيء إذا وضعت هذا نصب عينيّ!»

وعاشت بيكي الليالي اللاحقة، ليس فقط على الوجبات الخفيفة التي تقدمها لها سارا والقصص التي ترويها على مسامعها؛ وإنما أيضًا على دفئها وحنانها.

الفصل الثالث

صاحبة الجلالة

انقضى عامان دراسيان كاملان. وازدادت سارا قوةً وذكاءً، وكانت تحلم كل ليلة بالعودة إلى الهند للاعتناء بوالدها. وكان كابتن كرو يكتب لها خطابات طويلة مفصلة. وبعث إليها أيضًا بالكتب التي تقرؤها في وقت متأخر من الليل بعدما تخلد الفتيات الأخريات إلى النوم.

وقد مكنتها لغتها الفرنسية الطلقة وقصصها عن الهند من أن تصير الفتاة المثالية لتتباهى بها مدرسة الآنسة منشن الداخلية الراقية. وبدأت بعض الفتيات الأخريات يعاملن سارا وكأنها تنتمي إلى عائلة ملكية بحق، في حين غارت أخريات من الرعاية الخاصة التي تتلقاها ومن مظهرها المترف كما يرونه.

وفي يوم من الأيام، وفيما كانت في الردهة بصحبة زميلاتها في الفصل، تسلمت ربما أكثر خطاباتها تشويقًا على الإطلاق؛ إذ أطلعها كابتن كرو في هذا الخطاب على عمل جديد من المؤكد أنه سيجعلهما أكثر ثراءً من ذي قبل؛ إذا وافق على أن يكون شريكًا في منجم ماس مع أعز صديق له، وهو رجل تعرف عليه عندما كان لا يزال صبيًّا في المدرسة الداخلية.

فكرت إرمنجارد على نحو حالم: «ليتني أنا وسارا نمتلك منجم ماس يومًا ما.»

زفرت لافينيا، وقالت في حقد: «وهل ينقص سارا المزيد من الثراء!»

أقرت جيسي بما في داخلها: «يا له من أمر خيالي.»

وافقتها سارا الرأي. لم تكن سارا تكترث للثراء في حد ذاته. إن كانت تشعر بالإثارة (وهو ما حدث بالفعل)، فذلك لأن فكرة منجم ماس فكرة خيالية في جوهرها، بل وساحرة أيضًا، فهي أشبه بحكايات «ألف ليلة وليلة.»

وما أحلى القصص التي ألهمها بها منجم الماس! فأخذت سارا تروي على مسامع إرمنجارد ولوتي وبيكي والفتيات الأخريات قصصًا مبهجة عن الممرات الموشَّاة بالمجوهرات في باطن الأرض، وعن الرجال الشجعان الذين ينقبون بمعاولهم بحثًا عن الأحجار الكريمة.

أخبرت لافينيا جيسي: «لا أستطيع أن أتحمل هذا. سوف تتمادى في خيلائها الآن.»

هزت جيسي منكبيها دون اكتراث. فقد بدأت تحب سارا وتتمنى ألا يلحق بها أي أذى، وهي بالطبع لن تطلع لافينيا عما يدور بخلدها مطلقًا.

سألت لافينيا جيسي في محاولة لإحداث مشكلة: «أتعلمين أن سارا تدَّعِي في الخفاء أنها أميرة «حقيقية»؟ أجل هذا حقيقي، لقد سمعتها في إحدى الليال تبوح بهذا لإحداهن، قطعًا تلك الحمقاء البليدة إرمنجارد، عندما كنت أمر بغرفتها. أظن أنه ينبغي لنا جميعًا أن نناديها بـ«صاحبة الجلالة».»

قطَّبت جيسي جبينها، إذ لم تشأ أن تناديها بشيء كهذا.

قفزت لافينيا وركضت إلى حيث تجلس سارا وهي تنهي قصتها. وما أشد دهشة سارا عندما أخذت لافينيا تصفق لها.

هلَّلت لافينيا ساخرة وسط تصفيقها: «أوه، يا صاحبة الجلالة، مناجم ماس، يا له من شيء مثير!»

ازدردت سارا ريقها، إذ خجلت بشدة بسبب توهم كونها أميرة (أو «التظاهر» بأنها أميرة كما كانت تطلق عليه)، وها هي ذي لافينيا تسخر منها أمام المدرسة بأكملها.

لقد قررت سار في الخفاء أن تتخيل أنها أميرة حقيقية، ولها رعايا حقيقين (مثل بيكي ولوتي) بحاجة إليها، وكانت تطلق عليهم اسم «العامة»، وأنها سوف تهتم بأشياء أهم من جمالها. وفوق كل شيء، سوف تحاول دائما أن تكون كريمة وعطوف.

شعرت سارا برغبة في صفع لافينيا، لكن الأميرات لا يصفعن الناس كما رأت، حتى الحاقدين منهم أمثال لافينيا. أجبرت سارا نفسها على التكلم بهدوء، بل وعلى نحو ملكي أيضًا.

ردت سارا: «كلامكِ حق، أحيانًا ما أتخيل أنني أميرة، وأحاول أن أتصرف كأميرة. وأنتِ أيضًا قد ترغبين في أن تجربي هذا من وقت لآخر.»

قالت لافينيا في ازدراء: «يراودني سؤال؛ لو كنتِ فقيرة معدمة تقطنين علية، هل كنت ستتخيلين أنكِ أميرة أيضًا؟»

لم تعرف سارا بم تجيبها، لكنها قالت: «بالطبع كنت سأحاول.»

قالت لافينيا: «أف!» ثم اندفعت خارج الغرفة وهي تتأفف وتتبرم.

ومنذ ذلك الحين بدأ كثير من الفتيات الأخريات ينادين سارا عن محبة باسم «الأميرة»، وحتى الآنسة منشن فعلت هذا أيضًا، لكن ليس عن محبة، وإنما ليظن الآباء الذين يزورون المدرسة أن مدرستها تضم فتيات من العائلات المالكة.

ظلت خطابات كابتن كرو تتوالى على سارا، بيد أن سحرها أخذ يخبو شيئًا فشيئًا. قطعًا حاول الكابتن أن يجعل الخطابات تبدو مبهجة وزاخرة بالأخبار السارة؛ فقد أتى على ذكر عيد ميلاد سارا الحادي عشر القادم، ووعدها بإقامة حفل كبير لم تر الفتيات في مدرسة الآنسة منشن مثيلًا له.

لكن سارا بدأت تقرأ الرسالة المختبئة بين السطور؛ اضطرابات في العمل، ومشكلات صحية. وقد بدا أن والدها مهموم وتحدث مرارًا عن مدى افتقاده وحنينه لها، الشيء الذي حرص من قبل على أن يخفيه عنها دائمًا.

وفي يوم عيد ميلادها، جاءت بيكي لتعِدَّ سارا إلى الحفل، وساعدتها مارييت سريعًا في ارتداء ملابسها وزينتها. أمرت الآنسة منشن سارا بأن ترتدي أبهى حُلَلِها؛ فستانًا حريريًّا وردي اللون أُعِدَّ خصوصًا من أجل هذه المناسبة، وأن تجعد شعرها. لم تشأ سارا أن تتحلى بكل هذه البهرجة التي لا داعي لها، لكن الآنسة منشن أصرت كل الإصرار؛ فلأن كابتن كرو سيرد لها ثمن تكلفة الحفل أضعافًا مضاعفة، حرصت على ألا توفر أي نفقات.

قادت بيكي سارا إلى الردهة التي تحولت إلى قاعة الاحتفال. وبدلًا من أن تغادر بيكي القاعة في الحال كما ينبغي لها، لم تستطع أن تمنع نفسها عن المكوث والنظر إلى الزينة ذات الألوان المبهجة، والكعك الشهي، والهدايا.

وما إن لمحتها الآنسة منشن حتى صاحت في غضب: «أيتها الخادمة! اخرجي في الحال!»

توسَّلت إليها سارا: «من فضلك يا آنسة منشن، ألا يمكن أن تمكث بيكي معنا؟ من فضلك أسدي لي معروفًا خاصًّا يوم عيد ميلادي؟ بيكي، قبل كل شيء، فتاة صغيرة أيضًا.»

بدا الامتعاض على الآنسة منشن؛ فلطالما كانت تنظر إلى بيكي على أنها ماكينة أكثر من كونها فتاة صغيرة، لكنها مضطرة أن ترضخ الآن إلى مطلب سارا كيلا تخبر والدها

الثري أن الآنسة منشن رفضت طلبها. وها هي سارا تكَدِّرُها مرة أخرى، لكنها لم تكن تعرف السبب تحديدًا.

قالت الآنسة منشن في عبوس: «حسنًا.» ثم لوَّحت لبيكي بيدها، وقالت لها: «اذهبي وقفي هناك، لكن إياك أن تقتربي من الآنسات.»

أسرعت بيكي في سعادة غامرة نحو الركن إلى حيث أشارت الآنسة منشن.

ولم تكن بيكي وحدها التي تنظر إلى الكعك نظرة متلهفة جائعة، لكن الآنسة منشن لم تسمح لأي فتاة بأن تتناول قضمة واحدة، أو تفتح هدية إلى أن يغنين معًا أغنية عيد الميلاد.

أمرتهم الآنسة منشن قائلة: «سأعد من واحد إلى ثلاثة، وعندئذ نبدأ جميعًا في الغناء.» ثم أخذت تطرق بشوكتها الرنانة كي تقودهم إلى البداية الصحيحة.

وبدءوا جميعًا: «عيد ميلاد سعيد ...»

وفجأة قطع غناءهم اندفاع الآنسة أميليا على نحو أخرق إلى داخل الغرفة.

فصرخت فيها الآنسة منشن: «أميليا!» إذ ستضطرهن إلى بدء الغناء من جديد.

لكن الآنسة أميليا قالت وهي منقطعة الأنفاس: «إني آسفة. لكنها مسألة طارئة، على الأقل كما يقول السيد بارو. إنه يريد التحدث إليكِ في الحال.»

سألتها الآنسة منشن في لهفة: «من؟»

أجابتها الآنسة أميليا لاهثة: «السيد بارو، إنه في انتظارك ليتحدث إليك في مكتبك. يقول إنه مدير أعمال كابتن كرو.»

انتبهت الآنسة منشن كثيرًا لدى سماعها هذا.

وفكرت في نفسها: «حسنًا، إنها مسألة وقت، لقد أنفقت مئات الجنيهات على هذه الأميرة الصغيرة منذ أن وفدت إلى هنا، وأنفقت على هذا الحفل السخيف وحده مائة جنيه على الأقل، وقد مرت شهور الآن دون أن أسترد بنسًا واحدًا.»

ابتسمت الآنسة منشن ابتسامتها المريبة، ثم أخبرت الفتيات أنها ستعود في الحال. وقد حملتها فكرة أنها ستتسلم شيكًا بمبلغ كبير على أن تغدق عليهن بكرمها المفرط فأخبرت الفتيات أن بمقدورهن البدء في تناول الحلوى، وسيغنين لسارا عندما تعود.

الفصل الرابع

دوام الحال من المحال

هتفت الآنسة منشن وهي تندفع بلطف إلى مكتبها: «سيد بارو، تسعدني رؤيتك مرة أخرى!»

لكن عندما نهض السيد بارو ليحييها، لم تبد عليه أمارات السعادة.

قال السيد بارو في نبرة جادَّة: «آنسة منشن، ربما يجدر بكِ أن تجلسي.»

اكتست ملامح الآنسة منشن بالجدية، وسألته: «هل وقع مكروه؟»

قال السيد بارو وهو يجلس: «هذا أقل ما يمكن أن يُقال.»

وعندئذ أعلن السيد بارو عما يحمله من أنباء؛ كيف انهار مشروع مناجم الماس، وعن الراحل كابتن كرو.

قالت الآنسة منشن لاهثة: «أستميحك عذرًا، «الراحل» كابتن كرو؟»

أكد السيد بارو كلامه قائلًا: «لقد مات يا سيدتي، مات إثر إصابته بحُمَّى الأدغال. لكن هذا ليس كل شيء.»

سألته الآنسة منشن: «وهل هناك المزيد؟»

– «مات كابتن كرو دون أن يترك وراءه مليمًا واحدًا. مات فاقدًا صوابه تمامًا، وهو يهذي بالحديث عن ابنته الصغيرة.»

كادت أنفاس الآنسة منشن تنقطع، ليس على سبيل الشفقة، وإنما من شدة الغضب؛ لقد شعرت كأنما تعرضت للخديعة وجُرِّدت من حقوقها. خدعها الراحل كابتن كرو، والسيد بارو وحتى سارا نفسها.

تحدثت الآنسة منشن بتؤدة: «هل أنت تقول لي الآن … إنه لم يترك أي شيء لطفلته؟ ولم يترك شيئًا لي؟ هناك حفل كبير مُقام الآن من أجل سارا على نفقتي الخاصة، ولن أرى بنسًا واحدًا من المال الذي أنفقته عليها؟»

رد السيد بارو دون أن يختار كلماته: «أجل، للأسف باتت الفتاة شحَّاذة. لكن قبل أن تفكري في طردها إلى الشارع، فكري في صورة مدرستك.» ثم أضاف بجفاء: «واعلمي أن شركة «بارو آند سكيبورث» غير مسئولة عنها، بل أنتِ المسئولة.»

لم تصدق الآنسة منشن الكلمات التي وقعت على أذنيها لتوها، لكن ذهنها كان يعمل بأقصى سرعة بالفعل؛ فهي لا تزيد عن كونها سيدة أعمال ماكرة وها قد عرفت لتوها ما يرمي إليه السيد بارو. وبعد طول صمت تكلمت.

قالت الآنسة منشن مؤيدة كلامه: «أجل، من الأفضل أن أبقيها، وأن أستفيد من وجودها.» ثم ضيَّقت عينيها في مكر، واستأنفت كلامها: «أؤكد لك يا سيدي أنني سأستفيد منها أقصى استفادة ممكنة!»

قطع أصوات الغناء حوارهما. إنه صوت التلميذات كما توقعت الآنسة منشن بذهنها المشوش. لقد بدأن الغناء دونها، فأسرعت عائدة نحو الغرفة.

صرخت في اهتياج: «اصمتن في الحال!» ثم فتحت الباب، واندفعت إلى داخل الغرفة، وقالت: «ليصمت الجميع!»

توقفت الفتيات الخائفات في منتصف الأغنية.

قالت الآنسة منشن: «سارا كرو! تعالي إلى هنا في الحال!»

تفرق شمل الفتيات المحتشدات، وسارت سارا في هدوء نحو مقدمة الحجرة.

ردت سارا: «نعم يا آنسة منشن.»

سألتها الآنسة منشن بنبرة ساخرة: «هل لديكِ ثوب أسود في خزانة ملابسك الملكية الضخمة؟»

قالت لافينيا في همس: «إني موقنة من أن سارا لديها أثواب من كل لون.»

كررت الآنسة أميليا الكلمات قائلة: «ثوب أسود؟ ماذا تقصدين؟»

أجابت سارا في خوف: «لدي ثوب أسود من القطيفة قديم، لكنني كبرت، فبات قصيرًا للغاية عليّ.»

قالت الآنسة منشن: «هذا مؤسف للغاية. اذهبي وبدِّلي هذا الشيء الوردي السخيف بذلك الأسود. لقد ولى عهد الترف والبهرجة!»

وفي صدمتهن، لم تقو أي من الفتيات الأخريات على أن تنبس ببنت شفة.

صرخت الآنسة أميليا: «يا أختي، ما الذي حدث؟» لم تنتقِ الآنسة منشن كلماتها. قالت: «مات كابتن كرو. مات معدمًا تاركًا هذه الأميرة الصغيرة المدللة طوع بناني.»

شهقت الفتيات الأخريات، وارتمت الآنسة أميليا على أقرب مقعد، وأخذت بيكي التي كانت لا تزال تقف في أحد الأركان، تصرخ. لكن حال سارا كان مختلف تمامًا؛ إذ لم يصدر عنها أي ردود أفعال هوجاء على الإطلاق، ومع أن عينيها اتسعتا بشدة، وشحب وجهها، فقد تسمرت في مكانها كالصنم، ونظرت إلى الآنسة منشن دون أن تنبس ببنت شفة قبل أن تستدير وتسير في صمت إلى خارج الغرفة.

ثارت ثائرة الآنسة منشن عندما نظرت حولها ورأت ما تبقى من الحفل المترف الذي أنفقت عليه ببذخ.

قالت: «أيتها الفتيات! اتركن الكعك، واذهبن إلى غرفكن في الحال!»

ثم التفتت إلى بيكي التي كانت الدموع تنهمر على وجهها بغزارة.

– «وأنتِ، كفاك نحيبًا، ونظفي هذه الفوضى. لقد انتهى هذا الحفل!»

وفي الدور العلوي، كانت مارييت المرتجفة تساعد سارا على تبديل ثيابها بالثوب الأسود القديم الذي أمرتها الآنسة منشن بارتدائه. وكانت مارييت أيضًا قد ازدادت ولعًا بسارا وكانت تخشى أن يكون هذا هو آخر شيء يُسمح لها بأن تفعله من أجلها. وبدا على سارا أنها لم تكد تلحظ وجود مارييت.

ظلت سارا تقول لنفسها في هدوء: «مات أبي. مات أبي.»

لفَّت مارييت إيميلي أيضًا بوشاح أسود بدا لها أنه مناسب.

صرخت سارا: «آه يا إيميلي! هل عرفتِ بما جرى؟ لقد مات والدي! مات في الهند على بعد آلاف الأميال!»

وبدا أن إيميلي قد خرقت قواعد الطبيعة لحظة من الزمن، ودبت فيها الحياة فقط لكي تحدق إلى سارا في شجن عميق من المقعد القريب الذي تجلس عليه. لكن اللحظة انقضت، ومرة أخرى بدت إيميلي لا تزيد عن كونها قطعة من الجماد مغطاة بالأقمشة.

صرخت سارا وهي تهز دميتها: «لقد مات أبي!» فما كان من إيميلي إلا أن رقدت باسترخاء بين يدي سارا.

انسحق فؤاد سارا انسحاقًا لم تذق مثله من قبل، فأجهشت في البكاء، وألقت بإيميلي على الأرض وهي تتمنى من داخلها أن تنكسر.

صرخت سارا: «مات أبي وأنتِ لستِ سوى دمية! دمية ... دمية ... دمية!»

رقدت إيميلي على الأرض ورجلاها مثنيتان على نحو غريب فوق رأسها وقد انكسر طرف أنفها فصار مفلطحًا. ما زالت إيميلي تبدو هادئة بل وبدت عليها المهابة.

استبد الندم بسارا التي هرعت سريعًا لتلتقط إيميلي من على الأرض. ومرة أخرى بدا أن شيئًا من الحياة دب في الدمية التي نظرت بدورها إلى سارا نظرة متعاطفة تعاطفًا يشوبه الجمود.

أطلقت سارا تنهيدة متعَبة، وقالت: «آسفة، إني موقنة أنه لا حول لكِ ولا قوة.»

وآنذاك قرعت إحدى الفتيات باب سارا حاملة لها رسالة من الآنسة منشن التي كانت تطلب حضورها إلى الطابق السفلي.

كانت سارا لا تزال تحمل إيميلي عندما دخلت مكتب الآنسة منشن.

قالت الآنسة منشن معنفةً إياها: «ماذا تقصدين بإحضارك دميتك إلى هنا؟ ضعيها أرضًا.»

أجابتها سارا: «لا، هي كل ما أملك في الحياة الآن. لقد منحني والدي إياها لتؤنس وحدتي.»

أرادت الآنسة منشن أن تنتزع الدمية من سارا لكنها لم تستطع؛ فلطالما كانت سارا تجعلها مضطربة في داخلها، ومع حملقة سارا الثابتة في عينيها اضطربت الآن أيضًا. في حقيقة الأمر كان يساور الآنسة منشن آنذاك شيء من الخوف من سارا؛ لأنها كانت تعرف في داخلها الشر الذي تنوي فعله.

قالت الآنسة منشن في برود: «لن يكون لديك متسع من الوقت لتقضيه بصحبة الدمى بعد الآن. زمن الرغد ولَّى وزال. وها قد صرتِ وحيدة تمامًا في العالم بأسره.»

للحظة، عبس وجه سارا الهزيل الشاحب الصغير، لكنها لم تنبس ببنت شفة أيضًا، بل لم تبك أو تظهر عليها أمارت الخوف. كانت شجاعتها أكبر من أن تصمد الآنسة منشن أمامها.

سألتها الآنسة منشن في حدة: «إلام تحدقين؟ ولمَ أنتِ صامتة؟ ألا تفهمين ما أقوله لكِ؟ لقد أصبحتِ الآن، مع كل مظاهر الفخامة التي كانت تحيط بك، فقيرة معدمة. سوف تعملين هنا مقابل قُوتَك ولكي تسددي جميع الديون المستحقة عليكِ لي.»

ردت سارا في نبرة حزينة: «أفهم. والآن هل تأذني لي بالانصراف؟»

واستدارت سارا في تؤدة كي تغادر الغرفة.

فقالت لها الآنسة منشن: «قفي مكانك! ألن تشكريني؟»

توقفت سارا في ذهول، ونظرت إلى الآنسة منشن نظرة استغراب، وسألتها: «علامَ أشكرك؟»

ردت الآنسة منشن: «بالطبع على عطفي عليكِ؛ على سماحي لكِ بالبقاء هنا؛ على منحي إياكِ منزلًا يأويكِ.»

غمرت مشاعر الكبرياء سارا لدى سماعها هذه الكلمات، وقالت وهي تتشبث بإيميلي بقوة: «أنتِ لستِ عطوفة، ولن يكون هذا منزلي أبدًا!» ثم استدارت وركضت إلى خارج مكتب الآنسة منشن عائدة إلى غرفتها.

بيد أنه عندما بلغت سارا باب غرفتها وجدت الآنسة أميليا تقف أمامه.

قالت الآنسة أميليا وهي خجلى من نفسها لاضطرارها أن تنفذ تعليمات أختها: «أنا آسفة، لكن هذه لم تعد غرفتك. من المقرر أن تنامي في العلية في الغرفة المتاخمة لغرفة بيكي.» رأت سارا أن هذه هي بداية التغيير الذي أنبأت به الآنسة منشن.

كانت سارا تعرف موضع العلية، فلقد حدثتها بيكي عنها مرارًا كثيرة، لذا استدارت وارتقت مجموعتين أخريين من درجات السلم. وفيما كانت ترتقي السلم شعرت وكأنها تترك وراءها كل شيء عهدته في حياتها. وعندما بلغت قمة السلم، شعرت وكأنها مخلوق مختلف تمام الاختلاف.

وكان سقف غرفتها الجديدة مائلًا، وجدرانها مقشرة الطلاء، وبين جدرانها سرير متحجر يغطيه لحاف رفيع بال، ومدفأة صدئة صغيرة، وعدد من قطع الأثاث المعدومة البالية. وتحت النافذة المكسورة الزجاج مسند قدمين مكسور، قصدته سارا وجلست عليه. نكَّست سارا رأسها، واحتضنت نفسها، وأخذت تتمايل بجسدها. وحتى هذه اللحظة لم تبكِ سارا.

سمعت سارا طرقات خفيضة على بابها، تلاها وجه يختلس النظر في تردد. كان وجه بيكي، الذي — علاوة على كونه ملطخًا ومتسخًا طوال الوقت — كان شديد الحمرة الآن من البكاء.

قالت بيكي: «آنستي، هل تسمحين لي بالدخول؟ هل هناك أي خدمة يمكنني أن أسديها لكِ؟ من فضلك، اسمحي لي أن أظل في خدمتك؟»

رفعت سارا رأسها، وقد نوت أن تبتسم لها، لكن عندما رأت المحبة والحزن على وجه بيكي، تفجر شيء بداخلها، وأخيرًا انهمرت دموعها.

قالت سارا باكية: «أشكرك يا بيكي، لكن ليس في وسع أحد فعل أي شيء. لن تخدميني مرة أخرى، أتفهمين ذلك؟ لقد كنتُ على حق، فنحن لا نزيد عن كوننا فتاتين صغيرتين، لا فرق بيننا. ولم أعد أميرة بعد الآن.»

ركضت بيكي نحو سارا وجثَت على قدميها بجانبها وهمّت بمعانقتها وقالت باكية: «لا يا آنسة، أنتِ أميرة. ومهما حدث فستظلين أميرة على الدوام، ولا يستطيع أي شيء أن يجعلك غير هذا!»

الفصل الخامس

الجندي الأبِيُّ لا يتبرم

كانت ليلة سارا الأولى في العلية هي أشنعها في كل حياتها.

كانت الغرفة نفسها مروعة جدًّا؛ بأرضيتها الخشبية المجردة من الأغطية، وفراشها المتحجر، والرياح التي تعوي فوق رأسها. والأدهى من هذا وذاك، صوت خدوش الأظافر، والصرير الحاد الخفيض الآتي من الجدران. أدركت سارا أن هذه الأصوات أصوات الجرذان.

بيد أن أكثرها رعبًا على الإطلاق هي فكرة أن والدها يمكن أن يكون ميتًا بالفعل، وأنها لن تراه ثانية، وأنها باتت وحيدة في العالم بأسره. ومهما بلغ عدد المرات التي كررت فيها سارا هذه الجملة على نفسها، فهي ما زالت لا تستطيع أن تصدقها.

لكن الآنسة منشن ستكون خير عون في إقناعها بتصديق موت والدها.

في صبيحة اليوم التالي مرت سارا بباب الغرفة التي كانت غرفتها فيما مضى وكان مفتوحًا. اختلست نظرة خاطفة إلى الغرفة من الداخل، فرأت أنهم تخلصوا من كل الأشياء أو استبدلوها بأخرى، وكأن كل أثر للفتاة التي اعتادت أن تكون وللحياة التي اعتادت أن تحياها عندما كان والدها لا يزال على قيد الحياة؛ قد مُحي تمامًا. فكرت سارا في أن الآنسة منشن لا بد أن تكون قد أخذت كل حليها وملابسها الثمينة لتبيعها وتسترد ما أنفقته على حفل عيد ميلادها.

لم تحبذ سارا أن تخطر لها تلك الأفكار الشريرة عن السحر أو عن الكبار، فلطالما كان السحر والتخيل محببين إلى نفسها، بل كانا بمثابة أكبر المصادر التي تستمد منها قوتها، لكن بدا حينئذٍ أن السحر والخيال لن ينفعاها في شيء.

أخبرتها الآنسة منشن عندما نزلت إلى الدور السفلي: «تبدأ حياتك الجديدة اعتبارًا من اليوم. ستعملين لحسابي لقاء مكارم أخلاقي إذ لم أرم بكِ في الشارع. وستستهلين عملك برعاية الفتيات الأصغر وتعليمهن اللغة الفرنسية والمواد الدراسية الأخرى.»

رأت سارا أن هذا لن يكون سيئًا للغاية، فلقد أحبت أن تمضي الوقت بصحبة الفتيات الأصغر وأن تعلمهن أشياء جديدةً، علاوة على أن تعلقهن الدافئ بها ومشاعرهن الصادقة نحوها يوقظان في نفسها البهجة والفرح. ولم تكن سارا تعرف أن هذا ليس إلا بداية الأوجاع.

سوف ترسل الآنسة منشن سارا لقضاء مهام في أي وقت من النهار أو الليل وفي أسوأ الظروف المناخية. بل كانت ترسل سارا حاملة الرسائل لأشخاص في المدينة وأيضًا لتسديد فواتيرها، وهي المهمة التي ما كان يقدر عليها فتى يتحلى بالشجاعة والمسئولية. ومع أن سارا كانت فتاة صغيرة هزيلة، عادة ما كانت الطاهية ترسلها لتشتري مستلزمات الطعام. فكانت سارا تقطع الطرقات حاملة سلَّة ثقيلة بين ذراعيها. وقد أسندت الآنسة منشن إلى سارا كل المهام الصعبة الكريهة التي ما كان ليفعلها الخدم الآخرون.

أما عن بقية الخدم، من طاهية وخادمات، فمع أنهم كانوا خدمًا أيضًا، ما كان منهم إلا أن يفرضوا سلطتهم على الأصغر والأحدث بينهم. وقد اعتادت سارا أن تتصرف على نحو اعتبروه تعاليًا، ولم يخْفَ على أحد أن الآنسة منشن تكرهها، لذا بدا للخدم أن مثل هذه المعاملة هي الأنسب معها.

حاولت سارا أن تظل صابرة وألا تتبرم أو تشكو. وتمنت أن يرى الجميع أنها مخلصة ونشيطة في عملها فيرِقُّون لها ويحسنون معاملتها بمرور الوقت.

لكن الصواب جانبها في هذا الأمر؛ فكلما حاولت جاهدة أن ترضيهم وأن تفعل ما يُطلب منها، زادت خسَّة الجميع وزادت معها مطالبهم.

ومع كل يوم يمر بها، ازدادت حزنًا وغمًّا وزاد شعورها بالوحدة والوحشة. وكان أصعب شيء عليها هو الخروج من المدرسة ورؤية الناس الآخرين؛ فعندما كانت لا تزال الأميرة سارا، كانت نظرة فقط إلى وجهها المشرق المفعم بالحيوية والنشاط تجعل الناس يبتسمون، ولا سيما عندما كانت في الهند.

لكن لم يعد أحد يلتفت إليها بعد، بل إذا وقع نظر أحدهم عليها مصادفة، بدا وكأنه يريد أن يحول نظره بعيدًا عنها بأقصى سرعة ممكنة. لا بد أن منظرها أضحى كريهًا.

في بعض الأحيان، عندما يحل الظلام، كانت تقف أمام النوافذ المضيئة وتحدق في الغرف الدافئة المليئة بالأسر السعيدة. ومن الأسر التي كانت تبدو سعيدة للغاية أسرة تقطن نفس الميدان الذي تقع فيه المدرسة على بعد منزلين من المدرسة فحسب. وكانت سارا تطلق عليهم أسرة لارج أي الأسرة الكبيرة، ليس لأن أفرادها كبار فحسب، وإنما لأن عددهم كبير أيضًا، فكان في الأسرة ثمانية أطفال. وقد بدت أمارات السعادة على الأطفال الثمانية وكذلك على والديهم، وبدا أن روابط المحبة تربط بعضهم ببعض وبالعالم من حولهم. كانوا دائمًا يتبادلون النكات والهدايا ويخرجون للتنزه معًا.

وكان المنزل المجاور للمدرسة مباشرة قد ظل خاويًا فترة من الزمن، لكن سرعان ما أُضيئت شرفاته. ففي يوم من الأيام، وفيما كانت عائدة من أداء بعض المهام التي كُلِّفت بها، رأت شاحنة تقف أمام هذا المنزل؛ الأمر الذي بعث البهجة الشديدة في نفسها. فكَّرت سارا أنها إن تمكنت من رؤية بعض الأثاث، فربما تستشف شيئًا عن الجيران الجدد.

بدا الأثاث المنقول إلى هذا البيت مألوفًا لسارا؛ كانت هناك قطع أثاث مصنوعة من خشب الساج، وأخرى موشاة بزخارف شرقية. عجبًا، لقد رأت أشياء كهذه في الهند! تساءلت تُرى هل يكون جارها الجديد الذي يعيش بمفرده من الهند أيضًا؟ وعندما نظرت بالداخل لم تر أسرة سعيدة كبيرة العدد، وإنما رجلًا وحيدًا. فكَّرت سارا أن هذه هي الأسرة الصغيرة لأنه ليس هناك رقم أصغر من واحد.

وعندما مرّ السيد لارج ليلقي التحية على الجار الجديد، تساءلت هل أفراد الأسرة الكبيرة وتلك الأسرة المكونة من فرد واحد أصدقاء؟ تمنت سارا ذلك من أجل مصلحة الجار الجديد الوحيد. لكن أكثر شيء تعجبت له سارا عندما اختلست نظرة إلى الرجل عبر الشرفة المنيرة، هو أن السيد الوحيد بدا مريضًا ومكلومًا؛ فهل افتقد أحدًا كما افتقد والدها «سيدته الصغيرة» قبل أن يموت؟

من الأشياء التي أحبتها سارا أن عبء الواجبات الدراسية أخذ يزداد صعوبة.

قالت الآنسة منشن: «لا يحتاج الخدم إلى التعليم المدرسي.» وما كانت تقصده بذلك هو أن الخدم ليس لهم الحق في تلقي الدروس. ومع ذلك، كان منتظرًا من سارا بعد أن تمضي يومًا طويلًا تلبي فيه طلبات الجميع، أن تذهب إلى أبعد حجرة دراسية وأكثرها ظلامًا كي تستذكر دروسها بمفردها في الليل. وعادة ما كانت تروح في سبات عميق فوق كتبها، وتستيقظ في الصباح التالي على صوت صفعة أو تعنيف شديد. إذا لم تواصل

مذاكرتها، فربما تُحرم من التدريس للفصول الأكبر. هذا هو المستقبل الذي اضطرت سارا أن تتطلع إليه في مدرسة الآنسة منشن.

لكن التحول الكبير كان في الطريقة التي تعاملها بها الفتيات الأخريات؛ فبينما كانت الفتيات ينجذبن إليها في إعجاب في الماضي، أصبحن غير جديرات بالثقة ويصعب التعامل معهن، ولا سيما بعد أن أصبح ثوبها الأسود الوحيد أقصر طولًا وأكثر اهتراءً، وبات حذاؤها كثير الثقوب، ووجهها أكثر شحوبًا وهُزالًا. وبعد فترة وجيزة، أُمرت سارا بأن تتناول طعامها في المطبخ بصحبة سائر الخدم.

ومع أن معاملتهم لها أحزنتها للغاية، فإنها كانت شديدة الاعتزاز بكرامتها فلم تحاول أن تستعيد ثقتهن مرة أخرى. لقد صار قلبها أقوى من جسدها الهزيل وأكثر منه تألمًا. ولم تبح سارا لأي أحد قط عما يخالج فؤادها، إذ كانت ترى أن «الجندي الأبِيَّ لا يتبرم.»

بيد أنه في بعض الأيام، كان فؤادها يعتصر من الوحدة. حتى صديقتها القديمة إرمنجارد خذلتها على ما يبدو؛ فقد مرت الأسابيع على التحول الكبير الذي حدث في حياتها دون أن تراها على الإطلاق. لكن في أحد الأيام، وبينما كان ذراعاها محمَّلين بملابس تحتاج إلى التصليح، إذ بها تلتقي مصادفة بأفضل صديقاتها سابقًا في الردهة.

فما كان من إرمنجارد إلا أن وقفت في مكانها وحملقت، وقد انفغر فمها. حملقت إرمنجارد لأنها لم تتخيل قط أن يئول حال سارا إلى هذا المنظر الغريب والفقر المدقع كالخادمة. أرادت أن تبكي، لكنها كانت في قمة الضجر والتوتر حتى إنها بدلًا من أن تبكي انفجرت في نوبة قصيرة من الضحك، وسألت سارا في غباء: «هل هذه أنتِ يا سارا؟»

أجابت سارا باقتضاب وقد تورد وجهها من الخجل: «أجل.»

قالت إرمنجارد وقد استحوذ عليها الخجل: «كيف ... حالك؟»

في السابق لم تضق سارا ذرعًا قط بإرمنجارد البليدة المسكينة، لكنها فجأة شعرت وكأن إرمنجارد لا تختلف كثيرًا عن سائر الفتيات اللاتي تخلَّين عنها.

فقدت سارا أعصابها، وانفجرت فيها قائلة: «كيف ترين حالي؟ يا لكِ من غبية حقًّا، ألستِ كذلك!» انفطر قلب سارا من قسوتها، ومن نظرة الخجل والحزن التي كست وجه إرمنجارد، فاستدارت سارا، ومشت بعيدًا.

ومنذ ذلك اللقاء، حاولت سارا أن تتحاشى سائر الفتيات تمامًا، وقد يسرت الآنسة منشن عليها هذا الأمر. وكانت سارا ترى إرمنجارد بين الفينة والفينة جالسة وحدها في

مقعد الشرفة، جاثمة في أحد الأركان تبكي، فكانت تتملكها رغبة في الهرع إليها والاعتذار لها، لكن اعتزازها الشديد بنفسها كان يمنعها من ذلك.

وكان يخفف من كربها أنه لا تزال هناك بيكي على الأقل، فقد كانت بيكي واحدة من مصادر السلوان المحدودة في حياتها الجديدة الشاقة. وبالطبع لم يكن هناك متسع من الوقت في أن تحدث إحداهما الأخرى أثناء النهار، ولم يكن لهما الحق في ذلك، لكن قبل أن يطلع الفجر كانت بيكي تتسلل أحيانًا إلى غرفة سارا لتلقي عليها التحية وتساعدها بشتى الطرق الممكنة. وفي الليل قد تعرج بيكي على سارا لزيارتها مرة أخرى، وكانت دائمًا تطرق الباب أولًا في تواضع.

وقد دأبت بيكي على أن تطلب منها: «أتسمحين لي أن أظل خادمتك يا آنسة؟»

لكن سارا ترفض طلبها بحسم على الدوام وتقول لها مرارًا وتكرارًا: «لا فرق بيني وبينك، نحن لسنا سوى خادمتين صغيرتين نعيش في العلية.»

وعندئذ حدث أمر مشوق؛ بدا أن قريحة سارا الإبداعية الخيالية، التي غرقت طيلة الأسابيع الماضية في شيء من الركود، اضطرمت فيها شرارة الاشتعال لحظات. حتى إن بيكي نفسها لاحظت هذا أيضًا.

همست بيكي: «ما الأمر يا آنسة؟»

قالت سارا وعيناها متلألئتان: «لقد جانبني الصواب في هذا الأمر، نحن أكثر من مجرد خادمتين؛ نحن سجينتان مسكينتان منذ زمن. لقد اندلعت الثورة الفرنسية، وأُسِرْنا وزُجَّ بنا في سجن الباستيل في باريس!» ثم قالت سارا فجأة وبصوت مرتفع: «والآنسة منشن هي السجان، وأنتِ السجينة الموجودة في الزنزانة المجاورة!»

وافقت بيكي التي شعرت بالحماس في داخلها: «أجل يا آنسة، أنا سجينة في الزنزانة المجاورة.» وكانت تشعر بالسعادة ليس بالتفكير في أنها سجينة، ولكن بالتفكير في أن سارا وقصصها قد عادتا إلى الحياة مرة أخرى.

الفصل السادس

الزوَّار

بعد مرور أسابيع عديدة من الوحدة، وفي ليلة من الليالي، بعد أن بلغت سارا الخائرة القوى قمة السلم المؤدي إلى العلية، اندهشت لدى رؤيتها وميض ضوء شمعة يتسلل من تحت باب غرفتها.

فتحت سارا الباب لتجد إرمنجارد مرتدية ملابس النوم ومتدثرة في وشاح أحمر، وجالسة على مسند القدم المكسور. وعندما رفعت إرمنجارد رأسها، رأت سارا أن أنفها وعينيها تلونوا باللون الوردي من البكاء.

صرخت سارا: «إرمنجارد! لا يجدر بكِ أن تكوني هنا، ستعرضين نفسك لمشكلة.»

قالت إرمنجارد: «أعلم، لكنني لا أبالي.» ثم أغمضت عينيها بقوة فسقطت منهما دمعتان كبيرتان على وجنتيها الورديتين. ثم سألت: «سارا، أرجوك أخبريني، لِمَ لَمْ تعودي تحبينني؟»

شعرت سارا بالرغبة في البكاء.

ثم أجابتها: «لكنني أحبك بالفعل. لقد ظننت أنك أنتِ التي ما عُدتِ تحبينني!»

اندفعت الفتاتان وتعانقتا بقوة. ولأول مرة على الإطلاق تكون إرمنجارد هي من يبادر بالابتعاد أولًا، وعندئذٍ أدركت سارا كم كانت وحيدة دون أعز صديقاتها.

قالت إرمنجارد: «لم أعد أستطيع أن أتحمل هذا، لذا اضطررت أن أصعد إلى هنا وأترجاكِ كي نعود صديقتين من جديد.»

قالت سارا: «أنتِ أطيب مني، لقد افتقدتكِ أيضًا، لكن كبريائي منعني أن أقول أي شيء.» ثم قطبت سارا جبينها وأضافت: «كما ترين حالي الآن، وبعدما نفد ما لدي من حظ، اكتشفت أنني مع كل هذا لست طيبة.»